الأدب الفنلنـــدي

للأستاذ صديق شيبوب

بينما كان الشاعر « لياس نرنرو » يعنى بجمع قصائد كاليفالا وضم أجزائها ، وإنشاء لحمة بينها لتتألف منها ملحمة وطنية قديمة قام شاعر آخر ينظم ملحمة وطنية عصرية يتغنى فيها ببطولة الفنلنديين فى العصور الحديثة ، وكان اسم هذا الشاعر « جوهان لودنيج أونبرج » Johan Ludvig Runeberg

ولد أونبرج سنة ١٨٠٤ وتوفى سنة ١٨٧٧ ، ودرس الطب وامتهنه واشتغل بالأدب والشعر . وفى شبابه وجه عنايته إلى درس أخلاق مواطنيه فى كثير من العطف ، ثم كتب فى ذلك رسالة طويلة كما تناول مظاهر هذه الأخلاق فى الأقاصيص العديدة التى كتبها بعد ذلك . وهذا ما جعله فى طليعة الأدباء الذين عملوا على إنشاء الأدب القومى الفنلندى بالرغم من استعماله اللغة الأسوجية فيما كتب ونظم ، لأنه عرف كيف يصف روح مواطنيه وكيف يعبر عنها تعبيراً صادقاً . وقد تجلت هذه الميزة خاصة فى كتابه : « أقاصيص حامل الراية » Les récits de l'enseigne Stahl

كان الشعر أبرز ما فى أدب هذا الطبيب ، وله قصائد يعدها النقاد الأسوجيون والفنلنديون من خير ما نظم فى هذين البلدين ، وهم يقررون أن أحسن شعره ما جمعه فى كتابه الذى ذكرناه : « أقاصيص حامل الراية » ، وهو فى جزأين ، ظهر الأول منها سنة ١٨٤٨ ، والثانى سنة ١٨٦٠ .

تتألف هاتان المجموعتان الشعريتان من أقاصيص رواها على لسان جندى قديم اشترك فى الحرب التى اضطرت أسوج فى نهايتها إلى التنازل عن فنلندا لروسيا فوصف معاركها وقص أنباءها ، وسجل أخبارها . وقد كان من الجرأة بمكان عظيم أن يختار الشاعر موضوعاً لملحمة وطنية حرباً ختمت بالانكسار والخذلان ؛ ولكن التاريخ كان قد سبق الشاعر فدوّن الأخطاء التى وقعت فيها قيادة الجيش وحملها مسؤولية الاندحار ووصمها بالجبن والخيانة.

فقائد الجيش الأعلى لم يصدر غير أوامر تقضى بالارتداد والتراجع ، وسلم قائد آخر حصن « سيفبورج » الحصين من غير قتال . بينما ناضل الجنود المشهورون ببسالتهم وصبرهم على الأهوال نضال المستميت فأنقذوا شرف الجندية ولكنهم لم يستطيعوا أن يفوزوا وينتصروا .

وقد حمل « رونبرج » فى شعره على قائد الجيش وفضح خيانته ، ومما قاله فيه : « ليغفل ذكر أصله وسلالته حتى لا يتحملوا وزر جرمه ، ليحمل وحده عاره ، لأنه وحده جدير بالازدراء . ليس لمن خان وطنه أصل ولا سلالة ، ليس له ولد ولا والد . »

على أن شجاعة الجنود القاتلين كانت كافية لتوحى للشاعر قصائده الحماسية التى تغنى فيها ببسالة مواطنيه . وقد قص فى شعر رائع أخبار المعارك الصغيرة التى ظهرت فيها بطولتهم والتى تمكنوا فيها من التغلب على الجيش المهاجم فردوه مندحراً . وعنى الشاعر خاصة بأعمال البطولة الفردية التى تجلت فيها المزايا التى تتحلى بها روح الشعب الفنلندى

وصف الشاعر الجيش وتحدث فى أكثر من أقصوصة عن العلاقات الوثيقة التى استحكمت بين صغار القواد والجنود . وقد أجاد كل الإجادة ووصل إلى أبعد الغايات عند تناول وصف الجنود من طبقة الفلاحين . هذا « ستين دوفا » Sten Dufva الذى كان يظنه رفاقه معتوهاً ، ولكنه استطاع منفرداً أن يدافع عن أحد الجسور وأن يدفع عنه العدو حتى جاءت نجدة تمكنت من رده .

وهـذا « مونتر » Munter الجندى الباسل الذى كانت شجاعته تنبعث من أعماق نفسه فى كثير من السذاجة والتواضع . وقد مات صريعاً فى ساحة القتال بانفجار قذيفة رماها أحد جنود الأعداء فتلقاها «مونتر» بيده ليردها إليه . وقد رثاه «رونبرج» فى ختام قصته بقوله : « لقد كان فنلندياً »

ويطول بنا الحديث إذا شئنا عرض صور البطولة المختلفة الأشكال والأوضاع التى رسمها الشاعر فى هذين الديوانين ، وقد

كان طبيعياً أن يستهل « رونبرج » الجزء الأول منهما بقصيدة حماسية فى تمجيد وطنه والإشادة بذكره ، ننقل منها بعض شعرها للدلالة عليها . قال :

بلادنا ، بلادنا ، وطننا ،
دَوِّ عاليا أيها الاسم المحبوب ،
لا يوجد فى بلاد الشمال رواب ترتفع نحو السماء
ولا أودية تنخفض ، ولا شواطئ تغمرها الأمواج ،
أحب إلى القلوب من بلادنا
من أرض آبائنا

* * *

من يستطيع أن يحصى عدد المعارك
التى خاض غمارها هذا الشعب ،
عند ما كانت الحرب تستعر فى واد بعد واد ،
عند ما كان يحل البرد القاسى حاملاً معه الجوع المضنى
من يستطيع أن يحصر الدماء التى أراقها
وأن يصور شدة صبره على احتمال الأهوال

هذه هى « أقاصيص حامل الراية » التى يعتبرها الأسوجيون كأجل ما كتب بلغتهم . وقد أخذ عليها بعضهم أن ناظمها تحرر فى بعض الأحيان من نصوص التاريخ فلم يحترمها ، بينما يرى البعض الآخر أن هذا النقد لا يحط من قيمتها لأن « رونبرج » إذا تجاوز ما قرره التاريخ فإنه لم يتعد الحقيقة فكان صادقاً فى الصور التى رسمها والوصف الذى أجراه لنفسية الشعب الفنلندى وأخلاقه ومزاياه

(لبحث صلة)

صديق شيبوب

١٤٠٧